

محاولة في البحث عن:

إيديولوجية اللغة

بقلم: كمال محمد
ميسير في الأدب بالقاهرة

الأرض والمنتهية بأفرع ووريقات خضراء ، بلفظ شجرة ، هو بمثابة اذابتها في الوجود الانساني ، تقع تحت سيطرته ، وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء - أى اطلاق لفظ لغوى عليه - هو الخطوة الاولى للسيطرة على وجوده ، ومزجه بالوجود الانساني بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن هذا الوجود . والقوة في التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوى تكمن في امكان إثبات مواضيع من هذا الرمز لا تمت للشيء الرموز به اصلا بصفة مباشرة - وإن كان هذا لا يتم الا بعد عدة مراحل من التطور اللغوى - ومن هنا يتبين الفرق الأساسى بين التعبير الرمزي عن الأشياء والأفعال برسمها والتعبير الحركى للفعل - الرقص - الذى من الصعب أن يتولد عنه شيء آخر ، بخلاف اللفظ اللغوى الذى يملك تلك الامكانية .

ولست على هذا الأساس البيئة التى يحيا فيها الإنسان ، يعمل ويبحث ، مادية فقط ، بل هى بيئة ثقافية كذلك فأفعال الإنسان ، وكيفية أدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوى لجسده فقط ، بل البيئة والإنسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافى المنبث فى التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التى تحملها الألفاظ اللغوية فى طيها وتوحى بها .

والمشكلات التى تبعث على التقصى والبحث إنما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ولا تقتصر الأعضاء

ما أن تكونت أول جماعة انسانية - أيا كان طابعها - ازاء قوى الطبيعة حتى نشأت البيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده على هذا الكوكب . وصحبت معها مشاكلها الخاصة الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وفى سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة فى نوعها ، تولد النشاط الانساني فى استخدام الصوت لتكوين ألفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الاصوات بما يتبعه من مسيلك ذهنى لفهم مدلولها اللفظى عن طريق الاذن . تجسد هذا النشاط الانساني المتميز عن كائنات الطبيعة الأخرى ، فى صيحات موسيقية توحى بمعان سحرية ، تدل على الخوف والغضب وطلب النجدة - مثلا - تختلف فى دلالتها باختلاف موسيقاها .

هكذا كانت بداية اللغة التى استخدمت للتعبير الرمزي عن الأفعال والكائنات الحية والجمادة . بذلك تكون العنصر الأساسى للبيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده . فاللغة بظهورها كمرحلة عليا فى ماجريات التطور ، خازجة خروجاً تلقائياً من صوز سبقتها للنشاط الحيوانى ، كان رد فعلها الحتمى هو تحويل تلك الصور والضروب التى كان السلوك الجماعى يجرى على غرارها يضيف بعداً جديداً الى أبعاد الخبرة الانسانية ، ما نطلق عليه انسانية الوجود ، فالتعبير الرمزي عن الأشياء ، يحولها من أشياء قائمة بذاتها منفصلة عن الوجود الانساني ، الى جزء من هذا الوجود ، فمثلا تسمية الساق الخشبية المنبثقة من

التي تختص بهذه العلاقات على العين والاذن واللسان .
بل من أدواتها كذلك تلك المعاني المتطورة على مر الحياة ،
مضافا اليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة - اذن - فى مركب العناصر التي يتألف
منها المحيط الثقافي للانسان ، مكانا ذا دلالة خاصة
وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة ايضا ، فهي فى حد
ذاتها نظام ثقافى ، على أنها منظور اليها من احدى
وجهات النظر كنظام بين كثير من نظم ، ولكنها وهي :

1 - الاداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك
النظم الأخرى والعادات المكتسبة .

2 - وهي اللفاظ التي تتغلفل خلال الصور
ومضموناتها فى آن واحد معا ، أعنى الانظمة الثقافية
الأخرى ومضموناتها .

3 - فضلا عن ذلك فهي تتميز بتركيب خاص بها له
قابلية التجريد باعتبار اللغة «صورة» من الصور ولهذا
التركيب - اذا ما تجرد فى صوره - تأثير حاسم من
الوجهة التاريخية ، ستعرض له فيما بعد .

اللغة التي نتحدث عنها الآن هي بأوسع معانيها
- أعنى معناها الذي يضم كل وسائل التبادل ،
كالآثار - مثلا - والشعائر والفنون التشكيلية - اللغة
بهذا المعنى المتوسع هي الوسيلة التي تنقسمها الثقافة
فتبقى وعن طريقها تنتقل ، وهي ذلك التدوين الذي
يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها فى متناول الناس عامة
لبحثها من جديد ، ومن جهة أخرى فان الافكار أو المعاني
لا وجود لها الا فى رموز يستحيل فهمها دون الرجوع
اليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز نوعا من
البقاء الضروري لوجود الاشياء المرموز اليها ، بعد أن
كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي
عنها .

دينامية اللغة

واذا أردنا ان نضيق من نطاق البحث بعض الشيء ،
فنحد من معنى اللغة الواسع ، لنعنى باللغة هنا اللغة
المكتوبة والمتكلم بها فى صورة اللفاظ فقط ، فاننا نحصر
على ضوء هذا التحديد أهم أهدافها الرئيسية فيما يلى :

1 - هي أداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوي
الذاتي يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 - نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر ..

ويلاحظ أن الهدفين السابقين ينبعان من ذات
الانسان كوجود مستقل ويتجهان اثر ذلك اتجاهين
متضادين أحدهما الى خارج ذات الانسان ، يقوم بعملية
نقل الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث
يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمحصلة للهدفين
السابقين ينشأ الهدف الثالث للغة .

الهدف الاجتماعى

«من لم يتكلم لغتك ، فهو عدوك» كثيرا ما نعر على
هذا المثل وشبيهه فى المجتمعات البدائية ، باعتبار أن
اللغة أهم مظهر لوجود الجماعة ، والمحافظة على كيانها .
واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية ، نجد
هنا أن اللغة عنصر ضرورى لبقاء وتماسك وحدات
هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمبادئ ، تدعو الى البحث
عن دلالة شاملة للأشياء والانفعال وعناصر الوجود
المختلفة ، تتجسد فى صورة لفظ واحد مشترك ، يدل
على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي
دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة أفراد مجتمع
اللغة الواحدة . فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا
لتماسك المجتمع ، انما تقع فى كونها من جهة ضربا من
السلوك البيولوجى الخصيص بأدق المعاني ناشئا تلتأيا
من المناشئ، العضوية الاولى ، وفى كونها فى الوقت
نفسه - من جهة أخرى - تضطر الفرد الواحد من أفراد
الناس أن يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين ،
وأن ينظر الى الامور وأن يجرى عليها بحث من زاوية
لا تقتصر على فردية الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة
بينه وبينهم باعتبارهم شيئا واحدا او اطرافا متعاقدة أن
شئت فهي مشروع مشترك ، لا شك قد يكون عنصرا
من عناصر الوجود الفعلي الذاتى هو الموجه والهدف
لنشوء اللغة ، ولكن الذى لا شك فيه أيضا أنها تهم أول
ما تهم شخصا آخر - المستمع - أو أشخاصا آخرين
يوجه اليهم المتكلم الحديث ، لتكون وسيلة تفاهم بينه
وبينهم تقيم شيئا مشتركا . ومن ثم بمقدار ما يكون
لها من هذا الاشتراك تصبح - اللغة - عامة و «موضوعية»

ولما كان مصدر اللفاظ ينبع من ذات الانسان
كوسيلة للتعبير ونقل الافكار والمشاعر للغير ، على ذلك
لا بد أن يتسم اللفظ بسمات ذاتية المتحدث به ، فلو

يتألف من كل ما يستدعيه ذلك اللفظ في ذهن قائله أو سامعه ، من معان أو خواطر . أعنى أن كل ما يرتبط بالكلمة في الذهن داخل في معناها . فلو قلت لى لفظ «ميدان» مثلا وكان يرتبط في ذهني بهذا اللفظ صورة من قتال نشب وافقدني شخصا ما وأحاط بذلك كله حزن ما زال ينشأ في نفسي كلما ذكرت ذلك اللفظ ، كان كل ذلك داخلا في معنى اللفظ بالنسبة لى .

فوجود لغة واحدة في المجتمع ليست دليلا كافيا على أن التفاهم موجود بين الذين يتكلمونها ، والا فما معنى أن يظل عشرات من الناس يتناقشون ، ولا يخرجون بنتيجة ما ، يدل هذا على أن كل فرد من هؤلاء في ذهنه فكرة محددة وتلك الفكرة يستخدم في التعبير عنها ألفاظا بمفاهيم ذاتية مصدرها تجاربه وثقافته وبيئته الاجتماعية وأخيرا رؤيته الشاملة للحياة

ولكن اين أذن الإطار الثقافي الناشئ من اللغة والذي يعمل بدنيامية مستمرة على وحدة وتماسك أفراد المجتمع قد يعترينا التشاؤم بفقد هذا الإطار أو على الأقل توهم وجوده فقط كخطوط الطول والعرض الجغرافيين . إذ أن اختلاف لفظ ما - في جماعة ثقافية - كان التفاهم بين أفراد هذه الجماعة - بمقدار ذلك الاختلاف - مسدود الطريق ، ونتج عن ذلك سوء تفاهم مزمن بل قد ينتفى عنصر التفاهم الجامع بينهما من وجوده جذريا ولكن إذا نظرنا الى اللفظ من وجهة النظر المقابلة - وجهة نظر المجتمع لا الفرد - نجد أن تلك المفاهيم الذاتية للفظ الواحد المتعددة بتعداد أفراد المجتمع ، والتي أفزعتنا ، نجدها جميعا تنصهر في بوتقة واحدة ، تمثل المستوى الحضارى للمجتمع بأكمله تمتزج امتزاجا كليا ، ليتكون منها المدلول الاجتماعى الخاص باللفظ ، وهذا المفهوم هو الذى يضطر الفرد الواحد - كما سبق - أن يلتزم بذلك المفهوم الاجتماعى للفظ فاذا اتسم مجتمع ما بالصفة العلمية ، فهذا يعنى - مثلا - أن المدلول الاجتماعى للفظ القمر هو أنه كوكب معتم ، مهما اختلفت الرؤية الثقافية أو التجارب الذاتية للفرد ، فهو ملزم بأن يعنى ذلك المفهوم للفظ ما دام نطق به ، فاللفظ هنا يحمل الى جميع أفراد المجتمع قدرا مشتركا من الأفكار والمشاعر ، بجانب أنه يسمح بوجود أفكار ومشاعر ذاتية تصاحب ذلك المفهوم اللفظى . وعلى هذا فبقدر انتشار المفهوم

أنا قررنا ، كتجربة عارضة ، مناقشة مفهوم الألفاظ العادية المتداولة ، وحاولنا أن نعرف معانيها المحددة عن كل فرد ، لادركنا بوضوح أننا جميعا نتكلم بلغات مختلفة ، لغات ذاتية ، لكل فرد منا لغة خاصة والفاظ لها مفاهيمها الذاتية الخاصة بها . فاذا فرضنا وجود شخصين «أ» دارسن للعلم و «ب» دارس للآداب ، يتحادثان ذات ليلة مقمرة . يشير «أ» اشارة موجهة نحو السماء ويقول : «هذا هو القمر» . وينظر «ب» فى نفس الاتجاه مؤكدا اياه ، «نعم هذا هو القمر» لقد التقى الاثنان فى الرمز عن ذلك الكوكب المنير بلفظ «القمر» . ولكن المشكل أن مفهوم «أ» عن القمر يختلف عن مفهوم «ب» . فد «أ» عندما يشير الى القمر يفكر فى أنه كوكب معتم يدور حول الارض من اثر الجاذبية ، فى حين أن «ب» ينظر الى القمر على أنه الكوكب المنير فى دياجير الظلام . ويبين حتما ذلك الخلاف فى أول تعليق يأتى بعد هذا الصمت اما عن طريق «أ» او «ب» عن تلك الرؤية لتوضيح الهوية فى التفكير بين الاثنين .

ولكن هل يقتصر الخلاف فى المفهوم الذاتى بين «أ» و «ب» فقط ؟ ان المجتمع يتكون من مجموعة ملايين من أنماط مختلفة لا شك أن لكل منهم مفهوما ذاتيا عن «القمر» وغيره من الألفاظ المتداولة الأخرى . وعلى هذا فمفهوم أى لفظ من الطريف أن نذكر هنا ملاحظتين تدلان على أهمية اللغة فى المحافظة على كيان المجتمع من الوجهة العسكرية أيضا . الملاحظة الاولى من مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية ترجمة الاستاذ خيرى حماد هى : «ويقال ان صلاحية التخطيط اليابانى وتزمته والميل الى التخلي عن الهدف عندما تسير العمليات العسكرية وفى الخطط الموضوعية ، راجعان الى حد كبير الى ما فى لغتهم من طبيعة مزعجة وغير دقيقة بحيث تجعل من المتعذر ابتكار الخطط الجديدة ونقلها بواسطة اللاسلكى» .

الملاحظة الثانية نجدها فى «مطارحات ميكافيللى ، ترجية الاستاذ خيرى حماد ، وهى خاصة فى تفسير طول الصراع بين غير الرومانيين واللاتينيين «ويرد تيتونوس ليفى هذا التعادل بين الجيشين الى ما دار بينهما من حروب طويلة فى الماضى ، وإلى ما تميزا به من تعادل فى الروح الانضباطية ، ومن تشابه فى اللغة» .

العام للفظ يكون تماسك المجتمع ، فالعلاقة بينهما علاقة طردية . وقد تختلف الآراء وتتعدد في المجتمع الواحد ، لكنها - رغم اختلافها - لا تؤثر على وحدته وتماسكه ما دامت المفاهيم اللفظية للغة تشمل أكبر قدر من أفراد المجتمع .

وفي بعض الحالات الخاصة بالفاظ معينة ، نجد أن المشاعر الذاتية وحدها هي الشيء المشترك بين أفراد المجتمع بينما قد يختلف معنى اللفظ بينهم اختلافاً بينا وعميقا . وبقدر ما يحمل ذلك اللفظ من مشاعر ذاتية مشتركة بين الجميع ، بقدر ما يكون لذلك اللفظ القوة على بحث التماسك الاجتماعي وتحريكه كمجموعة واحدة تجاه شيء ما ، فكلومات الاستعمار والقومية تبعث مشاعر ذاتية عند كل فرد من أفراد المجتمع العربي - مثلاً - وهي رغم ذاتيتها المطلقة ، مشتركة مع مشاعر الناس الآخرين دون البحث عن اختلاف مفاهيمه بينهم ، فاللفظ هنا يفرض وجوده كـ «صورة» مجردة عن معناه .

وإذا كان الفرد محدوداً في أفقه الثقافي وتجاربه الذاتية وخبراته الفنية والاجتماعية ، كانت لغته مجرد انطباع - إلى حد كبير - للغة مجتمعه يستخدم الالفاظ بنفس مدلولاتها الاجتماعية ، بجانب مشاعره الذاتية لهذا اللفظ ، مما قد يدخل في معناه ويؤثر في لهجته ، ولكنه لا يملك الامكانية الثقافية والشخصية لفرض تلك المشاعر الذاتية على معنى اللفظ بطريقة ما ، ولذلك تبقى تلك المشاعر التي تضيف معاني ذاتية على الفاظه اللفظية ، خبيثة نفسه ، وقد تظهر في نطاق الاسرة ولاخص المقربين اليه الذين قد شاركوه تلك التجارب والخبرات الموحية بهذا المعنى ، وقد تتفجر تلك المشاعر الحبيثة عند قراءة قصيد شعري - أو مقال فلسفي إلى غير ذلك من الآثار الثقافية المختلفة - يستخدم فيه اللفظ بنفس المعنى الذاتي لديه .

أما إذا كان الفرد ممتازاً في ثقافته فانه يتأثر بلفظ مجتمعه ، ويؤثر فيها بإيجاد مفاهيم جديدة للالفاظ ، نتيجة لمشاعره وتجاربه الذاتية ، التي ينجح في فرضها على المجتمع حتى تأخذ سعة المدلول الجماعي ، هؤلاء هم المسيررون لحركة اللغة ، يعملون على تطور مفاهيمها اللفظية ، الشاعر ، الفيلسوف ، المفكر ، العالم - كل منهم يعبر عن أفكاره ومشاعره الناضجة التي يلبث

في تعميقها رأسياً وأفقياً ، حتى تتكشف له عن مفهوم جديد للفظ اللغوي ، يتفق مع مستوى ثقافته ووعيه وخبراته ونظراته الذاتية إلى مقومات الاشياء المتناولة لديه ، ثم يعمل هو بعد ذلك في نشر مفهومه الجديد وبقدر انتشار هذا المفهوم وبقدر تأثيره على الانسان البسيط ، يتغير المفهوم اللفظي ، وبذلك تتطور مفاهيم الالفاظ في اللغة .

ولكن كثيراً ما يجابه الشاعر والفيلسوف والعالم وانفكر مشكلة سوء الفهم ، إذ انهم يستخدمون نفس الالفاظ ، ولكن بمفهوم مختلف عن مفهوم المجتمع ، فحقيقة المشكل ليس في أنه لا يجد من يفهمه ، ولكن في ان الجميع فهمه ، باعتقادهم الفهم وفقاً للمفهوم الاجتماعي للفظ بصورة عامة ، ويحاول هو أن يوضح مفهومه الجديد بالفاظ هي الاخرى تفتقد امكانية التعبير عن مفاهيمه الجديدة يلجأ الفيلسوف للقضاء على هذا الاشكال بتحديد تعاريف لالفاظ موضوعه التي يريد تحييلها مذهبه أو فكره الجديد ، ولكن الاشكال يعود ليظهر في صورة اخرى أكثر تعقيداً إذ أنه يحاول أن يوضح تعريفه الجديد للفظ ، بالفاظ هي الاخرى تحتاج إلى تعريفات جديدة لتملك امكانية التعبير المباشر عن أفكاره الفلسفية ويؤثر العلماء استخدام الرموز بدلاً من الالفاظ كلما أمكن ذلك ، ليحدد بالرمز المفهوم المراد وحده ، ولا يختلط به شيء مما يعلق به من خواطر ومشاعر ذاتية بسبب استعماله في واقع الحياة اليومية .

ويبدو المشكل أكثر تعقيداً في ميدان السياسة والعلوم القانونية ، إذ يتخذ هذا المشكل ، وجهين متكاملين ، اولهما عدم الاطمئنان إلى الاستدلالات اللفظية والاستناد بدلاً عن ذلك إلى الوقائع العملية فقط ، وعرض الحوادث عرضاً مجسداً ، بغية اعطاء أساس صحيح للمحاكمات - كما يحدث عادة من تمثيل الجريمة مرة ثانية - أمام القضاء درءاً من التأثر بالصورة اللفظية المعبر عنها في المرافعات .

أما في ميدان التعبير الفني ، فمن خلال الملاحظات العابرة ، نجد أن الفنان التشكيلي والمؤلف الموسيقي لهما القدرة على تمثيل جملة العوامل الاجتماعية والثقافية في المجتمع فيخلقان من هذا كله شكلاً جديداً من أشكال التعبير الفني يختلف عن الاشكال القديمة ويسبق إلى

اللغة مصدر للتاريخ

ان الاعتراف بوجود «مستويات حضارية» خاصة بعصر أو ببلد معين ، والبحث عن «روح» عصر أو «ثمة» ثقافة ما ، في المواقف والمفاهيم والرموز المشتركة التي تكشف عنها الواجهة الاجتماعية للحضارات ، يجب ألا يحملنا على اهمال المفاهيم المختلفة التي يكسبها الناس المعاصرون - التاريخية قيد البحث - لهذه الرموز اللفظية ، بل ان اختلاف وتطور تلك المفاهيم يمكن اعتبارها وثائق تاريخية تعيش بيننا . وتشكل مصدرا لنوع من التاريخ نسميه اصطلاحا « علم تاريخ اللغة » .

هناك عناصر في ثقافة أى مجتمع تعبرف بالشوايات الثقافية ، كالأسرة ، والدين ، والمرأة ، والجنس التي وجدت في جميع المجتمعات والتي توجد دائما ، ولكن مفهوم تلك الشوايات الثقافية هو الذي يتغير في نطاق اللفظ ذاته ، أى يختلف دلالاته من عصر الى آخر ، ومن مجتمع لغيره ، تبعا لاختلاف المستويات الثقافية لهذا العصر أو المجتمع ، فالمرأة مثلا تطور مفهومها اللفظي في مجتمعنا العربي ، نتيجة لتغير مفهوم وجودها ، من مجال لاشباع الغريزة ، الى عنصر فعال لاستمرار الحياة ثم الى وجود ذاتي مستقل رغم ثبات اللفظ المطلق عليها .

ولا يتعين المحتوى الثقافي للفظ الا بمعايير مجردة ، كمييار القيمة الحيوية للمنفعة او الاخلاق وفقا للفلسفة العامة المحركة لقيم هذا المجتمع في ذلك الوقت ، فالحياة الاجتماعية الثقافية تتعلق بمواصفات ، تتعلق هي بدورها بمعايير أكثر عمقا ، يستطيع البحث النقدي اللاحق أن يكتشفها ، والافكار التي تؤثر في العلاقات الاجتماعية والثقافية ، لا تنشأ ولا تبدأ في التأثير منذ اللحظة التي تتلقى تعبيراً مجرداً في صورة لفظ ، بل على العكس ان التعبير المجرد يوجد بعد بحث وطول معاناة لتلك الافكار عن محتوى لفظي تتجسد وتستقر فيه في النهاية ، وقد يعترض على ذلك بالقول : « ان الافكار لا يمكن أن توجد الا في صورة لفظية حتى أثناء عملية التفكير الصامت ، والرد على ذلك يكون بالقول ان الفكرة توجد في البداية في صورة جمل لفظية مسهبة ، الى أن تبلور وتوجز في لفظ واحد ومن هنا نشأت أهمية الدراسة التاريخية للالفاظ .

التجديد أى تطور خلاق للمفاهيم اللغوية ، ذلك لان الفنان هنا يستخدم وسيلة فنية خصبة مرنة للتعبير ، لا تنقيد بمفاهيم ودلالات محددة ، لذلك فالمذاهب الفنية - عادة - أسبق الى الوجود من أى تجديد يبدهه الشاعر والاديب الذي يعرض مفهومات جديدة للالفاظ ، مستفيدا من المذاهب الفنية السابقة للوجود والتضج .

وعلى المستوى الجماعي ، حيث تنبثق المذاهب والانظمة الاجتماعية الجديدة ، التي تحمل تغييرا جذريا للمجتمع ، يتعقد المشكل أمام تلك المذاهب الجديدة ، فاستخدام نفس الالفاظ اللغوية للتعبير عن تلك المذاهب ، يجعلها في غير منجاة من التأثير بالانظمة والقوى الفكرية القديمة التي تستهدف تغييرها ومحورها تماما ، فاللغة دائما تبدو بلود الماضي في الحاضر - لتشكل في الوجود نوعا من الاستمرار التاريخي - مهما بدا هذا الحاضر مناقضا بطبيعته للماضي .

ولمحاولة تجنب هذا التأثير المطلق ، تضطر تلك المذاهب ، ابتداء ألفاظ جديدة تأخذ هي - المذاهب أعنى - في اصفاء مفاهيمها الخاصة بما يتفق مع اتجاهاتها الفلسفية وبذلك تفقد الالفاظ الجديدة أبنائها الشرعيين ، تحتكرهم لخدمتها وتؤثر بهم على عصور المستقبل التاريخية .

- لعل مثال تغير الدين الوثني الى الدين المسيحي في الامبراطورية الرومانية يقرب الفكرة أكثر ، فمن الحق أن يقال ان الدين المسيحي لم يفلح تماما في ازالة كل آثار ما قام به الرجال البارزون من اتباع الفلسفات القديمة ، وذلك بسبب الإبقاء على اللغة اللاتينية التي وجدت نفسها ملزمة بالإبقاء عليها لاستعمالها في تدوين شرائعها الجديدة ، وكل من يقرأ الاجراءات التي اتخذها قادة الديانة المسيحية في

البداية يستطيع أن يرى ، ما أثاروه من ضجة للخلاص من جميع سجلات الماضي ووثائقه كل هذا بسبيل القضاء على الفلسفات القديمة ، ولكن لو أضيفت الى جميع هذه الاجراءات لغة جديدة لنجت حقا من جميع تأثيرات الماضي ، أما استخدامها لنفس الالفاظ اللغوية في التعبير عن مضمونها الجديد بما تحمله تلك الالفاظ من دلالات فلسفية عميقة الغور ، جعلها بلا مغالة تقع تحت سيطرة تلك الفلسفات ، .

(مطارحات ميكافيلي - ترجمة الاستاذ خيرى حماد)

اننا - مثلا - نستطيع معرفة كنه الحيوانات المنقرضة التي كانت يوما ما تعيش على سطح الارض ، بدراسة ما خلقت من حفر وكذلك الالفاظ اللغوية . يمكن اعتبارها بمثابة تلك الحفريات ، فالمفهوم اللفظي اذن هو الشيء الحسى الذى نستطيع دراسته للاستدلال على الماضى الذى ما زال حيا فى حاضرننا .

ونهدف من هذا ، أن نبين أن نقطة البدء فى دراسة اللفظ هو مفهومه لا رتيبه . ذلك لان الرنين فقط لا يمثل الا الجسد الذى تعيش فيه روح اللفظ أى مفهومه . فاذا ادركنا أننا يجب أن نعرف ، ما كان الناس يقصدونه بأنفاظ معينة مثل الحرية او القومية او المساواة . فاننا نعنى الاشارة الى العاطفة التى دفعتهم الى خلق ذلك اللفظ اولا وأخيرا . فاذا ادركنا ذلك عرفنا القوة التى جعلت الحاضر مختلفا عن الماضى ، فعنصر استمرار هذه الالفاظ - رغم ما قد يطرأ على مدلولاتها من تغير - يعنى بالتبعية أنها ما زالت تحمل فاعليتها المؤثرة فى تشكيل التاريخ .

يجب أن يكون اللفظ قوة دينامية خلاقة تدفع للحركة والعمل - حين تكون مصدرا أساسيا للمؤرخ - بهذه الطريقة ، فالهدف التاريخى لدراسة اللفظ هو أن يتناول ذلك الذى ما زال حيا على كل لسان ، وذلك الذى ما زال يستهوى مشاعر كل انسان الالفاظ التى ما زالت تحتفظ بشذى عجيب يفوح منها . لقد اصبح من البديهيات منذ أن كتب دارون أبحاثه العلمية ، ان الاسمان يستطيع فهم الشيء فهما جيدا اذا ما توصل الى أصوله ، ويصدق هذا على الالفاظ وما تنطوى عليه من معان ، لذلك يجب أخيرا أن يكون لدينا - فى صورة

دائمة - قاموس يوضح مفهوم اللفظ . فى الوقت المعاصر ثم بحث جدى موجز عن المدلولات التى كان يدل عليها منذ بدء ابتكاره كلفظ له فعاليتها الخلاقة . وما ذلك الا لكي نعرف ما يمكن أن يسدل عليه أكثر من هذا فى المستقبل . وكما أن الشجرة يظهر عمرها كحلقات تخطها السنوات فى قطع من جذعها ، كذلك يدل مفهوم

اللفظ على مرحلة من مراحل النمو فى حضارتنا الراهنة وعلينا أن ندرس تلك الحلقات كما نجدها اليوم ، واذا كانت الشجرة - ونقصد بها اللفظ - ما زالت مستمرة فى النمو فان هذه الحلقات نفسها تغير الى حد ما ، لان الشجرة تزيد ارتفاعا وضخامة ، مما يضخم صعوبة عملية الدراسة ، وفى الوقت نفسه يزيد من أهميتها .

ويجب ألا ينظر الى أى لفظ يطرح على بساط البحث كأنه شىء . قد عفى عليه الزمن أو مات أو انتهى ، وربما ضعف ما فى اللفظ من حياة ، ولكنه مازال يحتفظ بقوته الدينامية الخلاقة وقد يبدو اللفظ أقل حياة لان هناك الفاظ أخرى قد نمت فوقه ، حجبت عن الوجود لفترة تاريخية محددة .. ومن هذه الوجهة لا تعتبر دراسة الالفاظ - خاصة القديم منها - كدراسة حفرة من الحفريات ، انقرضت نتيجة لاقتادها البيئة المناسبة ، بل كدراسة كائن حى قد يكون فى فترة خمود ، علينا معرفة مفهومه القديم ، وما ذلك الا لكي نعرف ما يمكن أن يتمخض عنه من قوة دافعة ، فى ثوب مفهوم جديد قد يدل عليه فى المستقبل .

ولقد تتحول الالفاظ تحولا غير لغوى ، وذلك باضافة تراث سياسى ، أو ثقافى ، أو اقتصادى ، اليها . فكلمة المساواة تحولت الى «مبدأ تكافؤ الفرص» نتيجة لاضافات علم الاقتصاد اليها ، وهنا يجب على الباحث أن لا تخدعه مظاهر اندثار الالفاظ فمن واجبه أن يبحث عن اللفظ الآخر الذى يعتبر نوعا من الامتداد المستمر للفظ المندثر ظاهريا .

وبعد ... يختلف هذا النوع من البحث التاريخى ، اختلافا كبيرا عن تاريخ الحقائق وزمانها ، لان الوسيلة المثلى لفهم مدلول لفظ هو الاحساس بهذا اللفظ كقوة دينامية خلاقة ، بصرف النظر عن دلالة اللفظية .

فالشعور أكثر أهمية فى المرحلة الناضجة من الحياة ، وإذا أحس الانسان بما كان يحسرك مشاعر أجداده ، غمره ذلك النوع من الشعور الذى يمكنه من القضاء على مشكلات الحاضر ، وخلق مستقبل أفضل .